

الدولة في نظريات ما بعد الحداثة: مدرسة فرنكفورت _ الجيل الأول _ نموذج

عبد الله الغماند

باحث في سلك الدكتوراه تخصص قانون عام.
جامعة ابن زهر، كلية العلوم القانونية والاجتماعية والاقتصادية، أكادير، المغرب

الملخص

شكل مفهوم الدولة أحد المفاهيم المحورية في نظريات ما بعد الحداثة، والتي تركزت اهتماماتها من جهة كثف محدودية سرديات الحداثة، وتحليل العلاقة الوظيفية القائمة بين الدولة والمجتمع والفرد من جهة أخرى. إذ حاولت مجموعة من النظريات بما فيها النظرية النقدية على تحليل بنيات السلطة وكشف أدوارها في هندسة الوظائف الجديدة لدولة ما بعد الحداثة، داعية إلى أهمية إهمال المقاربة النقدية كمدخل لدراسة مفهوم الدولة انفتاحا على حقول معرفية متعددة كالسوسيولوجيا وعلم النفس وفقه اللغة والفلسفة. وتوصلت الدراسة إلى الدور الكبير الذي لعبته النظرية النقدية في وضع أسس نقدية جديدة للتفكير في الدولة بعيدا عن الرؤية المركزية الوثوقية السائدة في أطروحات الحداثة.

الكلمات المفتاحية: الدولة، السلطة، ما بعد الحداثة، النظرية النقدية.

Abstract

The concept of the state has emerged as a central theme in postmodern theories, which primarily aim to expose the limitations of modernist narratives and analyze the functional relationship between the state, society, and the individual. Various theories, including critical theory, have attempted to analyze power structures and reveal their roles in shaping the new functions of the postmodern state. These theories advocate for the importance of adopting a critical approach as a gateway to studying the concept of the state, while also encouraging openness to multiple fields of knowledge such as sociology, psychology, linguistics, and philosophy. The study concludes that critical theory has played a significant role in laying new critical foundations

for rethinking the state, moving away from the central, deterministic perspective dominant in modernist discourse.

Keywords : State, Power, Postmodernism, Critical Theory.

مقدمة

تتميز نظرية الدولة في مقاربات ما بعد الحداثة بخلاف ما ترسخ في الحداثة؛ برفضها للسرديات النظرية التقليدية للدولة، وتساؤلها النقدي حول قدرتها على تجسيد الواقع بشكل موضوعي. بدلاً من ذلك؛ تركز مقاربات ما بعد الحداثة على تحليل أسس الخطاب حول الدولة والسلطة والقانون وعلاقات القوة داخل مجال الدولة.

وترفض مقاربات ما بعد الحداثة فكرة الدولة القومية المركزية ذات النموذج اليقوي، مشككة في قدرتها وإمكانيتها على تحقيق التنمية والديمقراطية والعدالة والمساواة في الحقوق والحريات، كما تولي هذه المقاربة اهتماما كبيرا للكشف والحفر في مناطق وكيفيات تشكل الخطاب حول الدولة والسلطة والمجتمع، وأيضا في الطرق التي تشتغل بها السلطة في هندسة الخطابات وتوزيعها.

وجاءت مقاربات ما بعد الحداثة في سياق بزوغ مرجعيات نظرية متعددة تنتقد المركزية الغربية للدولة الحديثة، وتؤكد على أهمية التنوع الثقافي والاجتماعي داخل الدولة، وتهتم بتحليل كيفية تشكيل الخطابات للدولة والمجتمع، وكيفية تأثيرها على فهمنا للواقع. وتدرس كيفية استخدام السلطة لتشكيل الخطابات وتوزيعها، وكيفية تأثير ذلك على تشكيل الهويات والعلاقات الاجتماعية.

وبدأت إرهابات ثقافة ما بعد الحداثة كانعكاس مجتمعي من نقطة الوعي بمشكلات الحداثة، بعدم قدرتها على مسايرة الوقع بشروطه الجديدة، وبتعقيداته الاجتماعية والسياسية والثقافية، في إطار ردة فعل تجاه ما يشهده السياق الغربي من تناقضات ومفارقات وانشطارات في الإيديولوجيات والسرديات التقليدية، والتنشير بنهاية الميتافيزيقا، والخروج من المعايير المقدسة،

ورفض مقولات عصر التنوير، وخطاب الحداثة المتمثل في الإيمان بالعقلانية الأدائية المطلقة⁴⁹⁴.

بشكل عام، تقدم مقاربات ما بعد الحداثة للدولة رؤية مختلفة عن الرؤية التقليدية، فهي تركز على تحليل الخطاب والسلطة وعلاقات القوة، وتؤكد على التعددية والنسبية، واهمية العودة إلى المجتمع المتعدد كحل للصراع وللتدافع بين الفاعلين لإنتاج المعنى وتشكيل علاقات السلطة.

ونشأ الجيل الأول من مدرسة فرنكفورت في سياق صعود الحركة الفاشية، وتغول النظام الرأسمالي، وعجز المشروع الماركسي في الإطاحة بالرأسمالية الغربية، ما دفع هؤلاء المفكرين - نقصد بالذات هوركهايمر وادورنو وماركيوز - إلى مراجعة أدوات التحليل المتعلقة بالماركسية التقليدية، وذلك بتوجيه الاهتمام ليس فقط إلى الاقتصاد والبنية التحتية، إنما إلى ما يقع في البنى الثقافية، والإيديولوجيا، والدولة، والتي أصبح ينظر إليها كأداة رسمية للسيطرة والهيمنة باسم العقلانية والسيادة والقانون، والتي أصبحت تخدم رهانات الرأسمالية والسلطوية.

إشكالية الدراسة

إلى أي حد ساهمت النظرية النقدية مع الجيل الأول في نقد أسس الدولة الحديثة وبناء مفهوم الدولة بمقومات مرحلة ما بعد الحداثة؟

أسئلتها:

- ما العلاقة بين النظرية النقدية وفلسفة ما بعد الحداثة؟
- كيف تناولت النظرية النقدية (الجيل الأول) مفهوم الدولة في علاقتها بالسلطة والمجتمع والفرد؟
- ما حجم تأثير أفكار الجيل الأول لمدرسة فرنكفورت على النظريات المعاصرة حول الدولة؟

494 إيهاب حسن، سؤال ما بعد الحداثة، ترجمة: بدر الدين مصطفى أحمد، مؤمنون بلا حدود (2016)،

منطلق الدراسة

تتطلق الدراسة من منطلق اعتبار الجيل الأول من مدرسة فرنكفورت من التيارات الفكرية التي كان لها السبق في نقد الدولة الحديثة في سياق مرحلة ما بعد الحداثة، إذ أوضح كون الدولة الحديثة مجرد آلة لإنتاج أدوات الهيمنة بمسوغات عقلانية، ما مهد السبيل لبروز مقاربات ومرجعيات نظرية لتحليل آليات السلطة وبنيات الدولة.

أهمية الدراسة

تأتي الدراسة في نطاق التنظير الفلسفي والسوسيولوجي لمفهوم الدولة، في سياق سلسلة البحث عن التحول في ماهية ووظيفية الدولة، كما تشكل هذه الدراسة، مساهمة نظرية في مشروع استحضار مجرى التفكير الفلسفي والاجتماعي في إشكالية الدولة من جهة، والتعاطي مع هذه الإشكالية من منظور تحليلي نقدي يتجاوز منطق تقديس الدولة وتركيز السلطة. كما ستسعف الدراسة في فهم مختلف التحولات الضابطة للعلاقة بين الدولة والمجتمع والفرد في سياقات متعددة.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى كشف كفاءات تعاطي المدرسة النقدية مع حزمة من السرديات التي شكلت محور تفكير الحداثة الغربية من قبيل الدولة والسلطة. كما يسعى المقال إلى إبراز أهمية الرؤية النقدية للجيل الأول لمدرسة فرنكفورت في نحت أدوات تحليلية جديدة تتجاوز منطق التحليل السائد في نظريات الحداثة، وذلك بوضعها مسألة الدولة محط نقد وتفكير.

المحور الأول: ما بعد الحداثة: السياق، الدلالات، الأسس.

"ما بعد الحداثة" مصطلح يكتنفه الكثير من الغموض والتعقيد⁴⁹⁵. فهي تحمل لفظة " ما بعد " التي تعني شيئاً ما ليس بالحداثة المتعارف عليها من قبل مجموعة من الباحثين والدارسين الذين، على الأقل، يقدّسون هذا المفهوم، ويعتبرونه اكتشافاً غريباً عظيماً نأى بالإنسانية من

⁴⁹⁵ Gary Madison, *Visages de la postmodernité*, Études littéraires, Volume 27, numéro 1, été 1994. P. 117

ظلمات الكنيسة، وميتافيزيقا السحر، إلى أنوار العقل ورحاب التفكير والنقد والحرية والعقلانية. وللمفارقة، فهي ليست الحداثة، ولم تصبح بعد حقبة جديدة. إنها تلك الوضعية المكدسة بالأزمات، والمليئة بالتناقضات والمفارقات والإشكاليات. وبتعبير أكثر دقة؛ هي الاسم اللحظي لحقبة مخاض لم ينتهي بعد، ويصعب نعتة أو تسميته، أو حتى وضع تحديد ملائم له نستطيع به فهم وتفسير ما يقع، وما يمكنه ان يقع بالضرورة، تماماً كما كانت الحقبة "الحديثة"⁴⁹⁶ تُسمى "ما بعد العصور الوسطى" قبل أن يُطلق عليها شارل بودلير الاسم المتداول اليوم. لكن، ورغم التعقيدات المحيطة بالمفهوم، حاول مجموعة من الباحثون تقديم تعريف لما بعد الحداثة أمثال جان فرانسوا ليوتار وداني روبير دوفور؛ وقدم عالم الاجتماع ميشيل مافيسولي، تعريفاً خاصاً عدّ مدخلاً أساسياً لفهم مختلف مؤلفاته المعقدة حول "الما بعد الحداثة".

⁴⁹⁶ مصطلح "الحداثة" بمعنى "ما يخص الزمن الحاضر" أو "المعاصر تحديداً"، ينبع — كما بين هانس روبرت ياوس — من فهم مقيد لكلمة "حديث". بالنسبة لشاتوبريان، ومدام دي ستايل، وفيكتور هوغو، فإن العصر الحديث يتزامن مع الحقبة المسيحية. أما بالنسبة لستاندال، فإن "الحداثة" لا تشير إلا إلى العالم المعاصر، هذا العالم الخاضع لتغير سريع ومتواصل. لكن "الحداثة" ليست صفة إيجابية بحد ذاتها؛ هكذا كان الحال بالنسبة لشاتوبريان، الذي يصف، أثناء حديثه عن آخر مهمة دبلوماسية له، دخوله إلى مدينة صغيرة في دوقية فورتمبيرغ الكبرى، في مساء عاصف:

" لم يتم تفتيشي عند الدخول... لم يكن لدي ما يخالف حقوق الملوك، أنا الذي كنت أعترف بحقوق ملك شاب، حين لم يعد الملوك أنفسهم يعترفون بها. كانت تفاهة الجمارك وحداتها، وجواز السفر، تتناقض مع العاصفة، وبوابة المدينة القوطية، وصوت البوق، ودوي السيل".
ينظر:

Kopp Robert. **Baudelaire : mode et modernité**. In : Cahiers de l'Association internationale des études françaises, (1986), n°38. pp. 173-186, p. 176

فقد ذهب ليوتار⁴⁹⁷ وآخرون إلى اعتبار العصر ما بعد الحداثي حقبة للأسى على الزمن المفقود، لأنه لم يعد هناك إيمان بالتقدم، ينقل أيديولوجيات أو مواقف رجعية، أو يوتوبيا سلبية، لكنه لا يحمل ملامح التوجه إيجابيا نحو التحرر والانعتاق، في إطار منظور عملي لهذا التحرر. ويميل ليوتار إلى تأييد هذا الواقع من خلال قوله إنه لم يعد هناك ذات، حتى نظرنا للإنسانية نظرة شاملة، لتكون قادرة على تبرير أي منظور عملي يهدف إلى تبرير التحرر. والخاصية الثانية لما بعد الحداثة بحسب ليوتار هي التطور التقني، الذي يسرع من هذه الآفة الفتاكة، يقصد الحزن على الزمن الضائع، وفقدان الثقة بالتقدم، وسيادة الارتياب من الحركية المتسارعة المتجهة نحو مكان ما⁴⁹⁸

ما بعد الحداثة ليست حركة ولا تيارًا فنيًا. إنها، في الواقع، التعبير المؤقت عن أزمة الحداثة التي عصفت بكيان المجتمع الغربي في حقبة زمنية معينة، وخاصةً في البلدان الأكثر تصنيعًا وتقدمًا، علما أن إن مفهوم التقدم يميز بشكل متزايد تطور الحضارة والثقافة الغربية منذ القرن التاسع عشر، يحتوي في الواقع على تقييم محدد تمامًا، ويكشف هذا التقييم عن المبدأ الكامن

⁴⁹⁷ يعد الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار Lyotard من كبار المفكرين الذين وضعوا مشروع الحداثة الغربية في محك النقد، وفي قصص الاتهام معلنا نهايته، وملمحا لبزوغ عصر ما بعد الحداثة في مؤلفه "الوضع ما بعد الحداثي" La condition Postmoderne سنة 1979م. ويذهب في هذا الإطار إلى الإفصاح عن أفول السرديات والنظريات والإيديولوجيات الكبرى المرتبطة بالحداثة لقصورها في تحليل الواقع وتفسير متغيراته وتحولاته ودينامياته، كما يصف هذه الأنساق الفكرية الكبرى بالجمود والانغلاق ويقصد النظريات الماركسية (لا سيما الماركسية الكلاسيكية) والوضعية (النزعة العلمية عند كونت ودوركايم)، والوجودية (فلسفة الحرية عند جون بول سارتر وكير كيغارد وجابرييل مارسيل وبيير بابيف وميرلوبنتي) والبرغماتية (النزعة النفعية التداولية الأمريكية) وغيرها من النظريات الأخرى، ينظر:

عصام عبد الله، "الجذور النييتشوية لـ" ما بعد " الحداثة"، الفلسفة والعصر، العدد الأول، أكتوبر، 1999، ص229-248، ص232.

⁴⁹⁸ Lyotard, Rorty et Agamben, "théories sur la postmodernité" : (Exposé de Jacques Mascotto) Séminaire du (11 octobre 1991), Groupe interuniversitaire d'étude de la postmodernité, Cahiers de recherche, p. 4

في التقدم أفرز المجتمع الصناعي الحديث⁴⁹⁹. أكثر من كونها استباقًا لمستقبل ترفض تصوره، تبدو بالأحرى كأعراضٍ لـ "قلق جديد في الحضارة" بمدلولها الحديث القائم على التصنيع والاستهلاك وادعاء الموضوعية في العلوم⁵⁰⁰.

وبزغت في العقود الأخيرة من القرن العشرين اشكال تعبيرية عديدة عن الأزمة التي أصابت مجتمعات الحداثة. كالفن والسينما والفلسفة والشعر والموسيقى، والتي تشكل جميعها في أصالة مفهوم الحداثة، بل أكثر من ذلك تعتقد البحث عن تلك الأصالة عبثًا⁵⁰¹

وفق هذا المعنى، يعد الحديث عن "ما بعد الحداثة"، أولاً؛ إقراراً بوجود الحداثة. غير أنه وكما كان هيغل يعتقد، فإن ما يأتي بعد شيء ما، يفتح إمكان تجاوز ما قبله من جهة، ومن جهة أخرى، يواصل الاحتفاظ بشيء ما مما سبقه. وصياغة أخرى أكثر دقة، فإن "ما بعد الحداثة" تتضمن بطبيعتها "الحداثة". وتبدو ما بعد الحداثة، من هذا المنطلق، كمفهوم يرتبط بعلاقة منطقية داخلية وثيقة مع الحداثة، ولا يمكن فصله عنها. وقد وصف كل من هيلر وفيرينس فيهير هذه العلاقة بقولهما أن "ما بعد الحداثة، في جميع الأحوال، تعيش كطفيل على حساب الحداثة؛ فهي تتطور وتتغذى على إنجازاتها ومشكلاتها وأزماتها"⁵⁰²

ساهم هذا السياق في إبراز تناقضات الدولة الحديثة؛ وكشف خطورة ركائزها المتمثلة في العقلانية الأداتية التي حولت الفرد إلى جزء في الطبيعة، وكيان كمي يمكن ضبطه وتوجيهه بتقنيات علمية دقيقة، وأيضاً بالنظر إلى الدولة كخطاب للهيمنة، وكمؤسسة لسيط السلطان على الفرد والمجتمع، وأيضاً كآلية للضبط، والنظر إلى المجتمع في بعد الأحادي، دون استحضار التعدد المميز للمجتمعات الحديثة.

⁴⁹⁹Marcuse Herbert, Brohm Jean-Marie. "L'idée de progrès à la lumière de la psychanalyse". In : L'Homme et la société, N. 11, (1969). Freudo-marxisme et sociologie de l'aliénation. pp. 37-47, 38

⁵⁰⁰ Nicole van Enis, "le postmodernisme", une publication barricade - le postmodernisme, céqwaça ? p.7

⁵⁰¹ Caroline Guibet Lafaye, "Esthétiques de la postmodernité", (2000), Preprint submitted on 9 Sep 2012

⁵⁰² Gary Madison, "Visages de la postmodernité", op.cit. p. 118

المحور الثاني: مفهوم الدولة في ضوء النظرية النقدية (الجيل الأول)

كان هيغل يرى في الدولة الحديثة تجسيداً للعقل. وتمثيلاً لمصالح الأفراد، وتعزيزاً للحقوق والحريات المستعصية خارجها، وتجلياً تاريخياً للحرية أو على الأقل ما تُشير إلى شيء يشبه الوعي، المُنظَّم والمؤسس على وظيفة أو عملية الانعكاس الذاتي؛ أي الوعي بالذات⁵⁰³، منبها هنا إلى كون الحقوق الفردية، لا تتحقق فعلياً ولا تصبح نافذة إلا من خلال اعتراف الدولة بها كحقوق للإنسان بصفته إنساناً، وأنه، بهذا المعنى، يستمد الفرد كل قيمته من الدولة، فيما يتعلق بالحقوق الذاتية⁵⁰⁴. وقد قدم الفيلسوف الألماني إريك فايل في عام 1950م، نقداً بليغاً للتصور التقليدي الذي يضع هيغل في خانة المنظرين للدولة الشمولية ذات نزعة تسلطية، ومنذ ذلك الحين، تم إلى حد كبير التشكيك في صورة هيغل كمدافع عن دولة مطلقة أو حتى شمولية⁵⁰⁵

وظهرت الدولة الحديثة عند نيتشه كألة للسلطة والكذب الذي لا حدود له، والتي تجرد الشعوب من عاداتها الأصيلة. واصفاً إياها بالوحش البارد، وتحمل هذه العبارة تنديداً بوحشية الدولة الحديثة الكامنة في الكذب الذي تحتويه في أحشائها. فهي تمارس الديماغوجية بادعاء ارتباطها بالشعب وبمصالحه وغاياته. غير أن الحقيقة هي أن شكل الدولة الحديثة يقوم على التلاعب بالشعب من أجل تحقيق أهدافها ومصالحها الخاصة. وتشهد الأمثلة في إفريقيا على وجه هذا "الوحش البارد". بالنسبة لنيتشه، ولذلك فالدولة الحديثة لا تمتلك تقنيداً للمشروعية. ومن هنا

⁵⁰³ Gravel, P. "Hegel et la construction de l'État : contribution à sa destruction". Philosophiques, Volume 9, numéro 1, (avril 1982), p. 98

⁵⁰⁴ Grégoire Franz. "L'État hégélien est-il totalitaire ?" In : Revue Philosophique de Louvain. Troisième série, tome 60, n°66, (1962). pp. 244-253, p. 245

⁵⁰⁵ Sabina tortorella, "au-delà de la multitude : l'état hégélien à l'épreuve du présent", Etica & Politica / Ethics & Politics, XXIII, (2021), 2, pp. 77-102, p 78

ينبع حلمه بمؤسسة جديدة تُشجّع وتحمي تفتح الإنسان⁵⁰⁶، وتقطع مع التجاوزات الخطيرة لحرية الأفراد⁵⁰⁷

وفي هذا الإطار يكشف نيتشه عن طبيعة الأصنام الجديدة التي تجسدها الدولة الحديثة، في نوع من المحاكمة النقدية الراضية الدولة الحديثة، بل وللحادثة السياسية عموماً. وقد حدا حذوه مجموعة من المفكرين المعارضين لسرديات الدولة الحديثة. فلا ينحصر الأمر فقط على كارل ماركس الذي تتبأ بزوال الدولة حالما تنتفي الطبقة وتسد دكتاتورية الطبقات العاملة في الدولة والمجتمع⁵⁰⁸؛ بل أيضاً كيركغور وستيرنر اللذان فضحا فيها جوهر القمع، وكذلك الفوضويان برودون وباكونين اللذان خططا للقضاء عليها، بتأكيدهما أن الحرية أو الفوضى، أي التنظيم الحر للطبقات العاملة من الأسفل إلى الأعلى، هو الهدف النهائي للتطور الاجتماعي⁵⁰⁹،

فكل هذه الشرور تجعل الدولة الحديثة مرتبطة بغريزة الموت التي تحدث عنها فرويد⁵¹⁰. ضمن هذا الأفق الفلسفي، برزت النظرية النقدية داخل مشروع الحداثة بطرحها لأسئلة نقدية حول ما يسميه البعض بانحرافات والتي ولدت في قلب الحداثة، لتتعلق لحظة التفكير النقدي في المشروع الحداثي والمآلات السياسية والاقتصادية للحداثة، انتهت هذه المرحلة بمحاكمة السرديات التقليدية ومساءلة مسلماتها وأفكارها وأسسها، فتبلورت مدرسة نقدية سمت نفسها بمدرسة فرنكفورت، والتي داع صيتها في الأوساط الأكاديمية زهاء عقود من الزمن، مركزة

⁵⁰⁶ Yao Germain YAO, "l'état moderne : une institution monstrueuse", collection recherches & regards d'Afrique vol 1n° 1 fév. (2022), p.390

⁵⁰⁷ Ibid., p. 392

⁵⁰⁸ Radjavi Kazem. "L'État et la dictature du prolétariat". In : Raison présente, n°39, Juillet – Août – (Septembre 1976). Langage, communication, chimpanzés. pp. 33-59, ppppp. 44, 45, 46, 47,48

⁵⁰⁹ Mikhaïl bakounin, "Sur l'état", Passages de l'Étatisme et anarchie, Zurich, (1873),

<https://www.panarchy.org/bakounin/etat.html>.

⁵¹⁰ Yao Germain YAO, "l'état moderne : une institution monstrueuse", op.cit., p. 411

انتقادها على حزمة من السرديات والمنطلقات والمسلمات التي تتحدر من التركة الفكرية والفلسفية المقدسة للحدث.

لقد تشكلت النظرية النقدية في البوتقة الفكرية الماركسية⁵¹¹، كما تعد من أهم وأشهر المدارس الفكرية التي طورت الماركسية خلال القرن العشرين، وعمد المفكرين المنتمين إلى هذا التوجه إلى تقويم منزلقات النظرية الماركسية الكلاسيكية، وتطوير آلياتها النقدية بما يواكب الديناميات والتحويلات التي مست جوهر الرأسمالية الغربية، وهكذا، تجلت النظرية النقدية لتتطر في مناحي الواقع السوسيولوجي التي أهملها ماركسية ومن حذا حذوها من الماركسيين التقليديين⁵¹² وتطورت النظرية النقدية، عبر التقليد النظري المتواصل لمدرسة فرانكفورت بين ثلاثينيات وستينيات القرن العشرين، في سياق محاولة أكثر غنى وتنظيمًا وقدرة على بلورة نقد للمجتمع الرأسمالي المعاصر مختلف عما قدمه النقد الماركسي الكلاسيكي للمجتمع البرجوازي. ولهذا فقد كانت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت التيار النقدي الهائل الذي تمكن من التمتع على مستوى الزمن التاريخي لحركات 68، ولم يكن هناك أي تيار نظري آخر يمتلك هذه الإمكانية وهذه القدرة⁵¹³. فمن الطبيعي أن مدرسة فرانكفورت جاءت ضمن أفق فكري مشكل بقوة من قبل التقليد الماركسي، لكنها انطلقت من هذه القاعدة لتتمكن من إنتاج سلسلة من السرديات النظرية الجديدة، والأدوات التحليلية لما يشهده المجتمع الرأسمالي من تحولات ومشكلات، والتي تجاوزت بكثير ما استطاعت التقاليد الأخرى أن تحيطه نقدا وتحليلا.

⁵¹¹ ستيفن غريك برونر، " النظرية النقدية، مقدمة قصيرة جدا"، ترجمة سارة عادل،

مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، 2016، ص. 10

⁵¹² كمال طيرشي، ترجمة عصام سليمان، وغانم هنا، "مراجعة كتاب: مدرسة فرانكفورت: تاريخها وتطورها النظري وأهميتها السياسية لرولف فيغر سهاوس"، مجلة تبيين، العدد 45 - المجلد 12 / 12 Issue 182 - Volume 45 صيف (2023)، ص. 182

⁵¹³ Stephano petrucciani, "La théorie critique de l'École de Francfort et le mouvement des années 1968" : un rapport complexe, Actuel Marx / no 48 / 2010 : Communisme ? p. 138

يشكل مفهوم الدولة أحد القضايا الأساسية التي تعاطت لها النظرية النقدية من منظور مختلف، إذ تزعم بنشوء نظام اجتماعي جديد يختلف تماما عن نمط الأنساق الاجتماعية التي نشأت في سياق الحداثة الكلاسيكية، بحيث تمكنت الدولة من السيطرة على تناقضات الرأسمالية، وخلق مجتمع احادي البعد⁵¹⁴، ففي هذا الإطار، قام هيربرت ماركيز بتحليل الاتجاهات التي تقود نحو "مجتمع مغلق" يُخضع ويُدمج جميع أبعاد الوجود الإنساني؛ الخاصة والعامة. ما أودى إلى استيعاب القوى والمصالح المعارضة من قبل الرأسمالية، وتوجيه الإيرادات البشرية الخضوع لإرادة الهيمنة الرأسمالية دون القدرة على النفي⁵¹⁵

لقد وضع منظرو الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت - ولا سيما هوركهايمر، وأدورنو وماركوز أنثروبولوجيا تتبني على اغتراب⁵¹⁶ الإنسان في احضان المجتمع البرجوازي الرأسمالي الحديث، الذي أفقد للإنسان استقلالته، في مواجهة الآلة الإنتاجية الرأسمالية المتمكنة من إخضاعه لسطوة الاستهلاك. والتي تعد النقطة الجوهرية التي انطلق منها ماركيز لتوجيه آرائه النقدية

⁵¹⁴ Morrow, R. A. (1983). **La Théorie critique de l'École de Francfort : implications pour une sociologie de la littérature**. Études françaises, 19(3), 35-49., p 43

⁵¹⁵ Igor Krtolica, « **Herbert Marcuse, penseur de la révolte des étudiants allemands** », Cahiers du GRM [En ligne], 3 | 2012, mis en ligne le 29 mai (2012), consulté le 30 avril 2019, p 8

⁵¹⁶ وظفت المدرسة النقدية مقولة التشيؤ والاغتراب كإطار مرجعي للبنى الفكرية التي طرحها مختلف المفكرين المنتمين إلى النظرية النقدية بمختلف أجيالهم لتحليل وتفكيك بنيات المجتمع الرأسمالي الصناعي العقلاني الحديث، والتي تحول الإنسان في ظلها إلى مجرد أداة للإنتاج، وقطعة غيار قابلة للاستبدال في قلب العالم التقني الضخم الذي يصعب الإلمام بشبكته المعقدة أو بمخترق القوى الهائلة التي تحرك خيوطه.

للمجتمع الرأسمالي الصناعي⁵¹⁷ الذي رسخ عقلانية أدواتية تقنية التي تجسد فعليًا مشروعًا سياسيًا للهيمنة والتلاعب بالإنسان⁵¹⁸

لم تكن النظرية النقدية بحاجة لقطع علاقتها بالماركسية الكلاسيكية لتظهر مطلبها الجذري المناهض للسلطوية؛ فالماركسية التي تتبناها النظرية النقدية، كانت تحتوي منذ بدايات الأربعينيات - بل وقبل ذلك - على العناصر الجوهرية في نقد الأنظمة السلطوية المهيمنة على السلطة في القرن العشرين، وهو النقد الذي تم تطويره لاحقًا على يد هوركهaimer وأورنو ليشمل أمورًا، وي طرح أسئلة تتجاوز سجل الماركسية التقليدية التي اتهمها الكثير بوصفها ماركسية مناضلة.

وفي هذا النص، يعلن هوركهaimer - من بين أمور أخرى - أنه لم يعد من المجدي النضال من أجل الثورة، وأن ماركس كان مخطئًا سياسيًا في رؤيته للاشتراكية، وأنه ينبغي الحفاظ - قدر الإمكان - على بعض القيم الليبرالية⁵¹⁹.

وفي نصه حول "الدولة السلطوية" عام 1942م، رسم هوركهaimer ملامح كبرى لنقد نموذج السلطوية القائم في هياكل سلطة دولة القرن العشرين، وكان الهدف من هذا الكتاب هو التأكيد في أوجه التشابه بين الستالينية والنازية تحت شكل الرأسمالية الدولة⁵²⁰، وهو الموضوع المركزي الذي سيعمل على تطويره في مؤلفه المشترك مع أورنو، "جدلية التنوير عام 1947م. بحيث

⁵¹⁷ عبد الغفار مكاوي، " النظرية النقدية لمدرسة فرنكفورت"، مؤسسة هنداي، 2018،

⁵¹⁸ Raffaele Carbone, **La Théorie critique aujourd'hui : usages et déclinaisons**, horizons, p 2, <file:///C:/Users/lenovo/Downloads/la-theorie-critique-aujourd'hui-usages-et-declinaisons.pdf>

⁵¹⁹ Ferry Jean-Marc. **Théorie critique et critique du totalitarisme**. In : Revue française de science politique, 34^e année, n°1, (1984). pp. 79-102, p 81

⁵²⁰ Katia Genel, **La dialectique de la raison, contribution à une théorie du totalitarisme ? État autoritaire, État totalitaire et non-État**, édition de la maison des sciences de l'homme, https

نُطرح مسألة التوتاليتارية⁵²¹ بشكل أكثر دقة وضوحاً، من خلال تشخيص "اعتلال العقل"، في تحويل المشكلة من كونها سياسية – أي تتعلق بنمط النظام الذي يمثله "الدولة السلطوية" وطريقة اشتغاله – إلى كونها مشكلة حضارية تتعلق بعقلنة العالم. وبترافق هذا التحول، بدرجة معينة، مع اختزال مسألة العلاقة بين النظرية والممارسة _ التي كانت في صلب مقال هوركهايمر عن "الدولة السلطوية" _ إلى مسألة إمكانية النظرية فقط. فبهذه المؤلفات أحدث هوركهايمر وأدورنو انعطافاً في جوهر النظرية النقدية بخصوص السلطوية.

وظفت السلطوية استراتيجية التداخل بين الفردانية وآليات الهيمنة الشمولية للهيمنة على المجتمع، وهو ما سيبدو أكثر تفصيلاً في أبحاث أدورنو المتعلقة بدراسة " الشخصية السلطوية"⁵²²، حيث تتناول طبيعة الهيمنة وآليات اشتغالها، سواء من زاوية التحولات "الموضوعية" للهيمنة ضمن الاحتكار ورأسمالية الدولة، أو من زاوية التحولات التي تطال ذاتية الأفراد.

⁵²¹ يرتبط هذا المصطلح بكتابات المفكرة الألمانية اليهودية حنا أرندت، والتي حاولت من خلال توصيف الآليات السلطوية المطلقة التي توظفها الأنظمة الشمولية كانازية والفاشية للسيطرة على المجتمع والفرد، ولاحتكار مواقع السلطة والهيمنة على الدولة، كما بينت المفكرة خطورة هذه الأنظمة على الحرية والسياسة والدولة والمجتمع والفرد، وتعتمد هذه الأنظمة الشمولية مجموعة من الآليات، من قبيل: تحويل الأفراد إلى جماهير وحشود للتحكم فيهم وتوجيههم، وأيضاً بتحويل الحياة السياسية إلى صحراء فارغة من المعنى، وتذريير الأفراد بمنع قيام فضاءات عمومية للنقاش والمحادثة والفعل، واستعمال أساليب التخويف والترهيب والقمع، كما تصفها أرندت بكونها أنظمة إنتاج الشر المطلق. للمزيد من المعطيات حول الأنظمة التوتاليتارية ننصح القارئ الكريم للاطلاع على مؤالف حنة أرندت: Hannah Arendt, "le système totalitaire", éditions du seuil, (1972)

⁵²² اقترنت نظرية الشخصية التسلطية بالأبحاث التي قام بها الفيلسوف الأمريكي تيودور أدورنو لفهم مختلف الاتجاهات المعادية للسامية بأمريكا، وتصلوا إلى أن للشخصية السلطوية مجموعة من السمات من قبيل: الالتزام الصارم بالقيم المتفقة مع التقاليد الاجتماعية السائدة، السلوك النمطي والعقاب القاسي للمنحرفين عنه، الحاجة المبالغ فيها للخضوع للسلطة، تقييد الحريات والمشاعر، القوة والقسوة، العداوة، الإسقاط، الغيمان بالخرافات، وأخيراً الميل إلى التدمير. ينظر: البشير معمري، " التسلط والتعصب وطاعة السلطة والقتل الجماعي من منظور علم النفس الاجتماعي السياسي"، مجلة علم

النفس التطبيقي قسم علم النفس، كلية الآداب، المنوفية، ص.ص. 101- 102

يعود مغزى هذا التحول في الامتعاض من رأسمالية الدولة والتي لم تعد تُعتبر بأي شكل تحراً من الهيمنة، إنما تعتبر آلية للانتكاس. من جهة أخرى، هناك وعي أشمل بآليات الهيمنة التي تعمل بشكل ممنهج ومنظم.

وهكذا يُشككان في مركزية السلطة وفي طبيعتها "الدولتية". وإذا كان هذا التحول لم يُلغِ الإشارة إلى السلطوية، فذلك لأن المفهوم أُعيد استخدامه ضمن سجل نفسي-اجتماعي، لم يُعد يشير صراحة إلى "دولة قوية"، بل صار يرتبط بتحليل نظام جديد من الهيمنة، متعدد العمليات، نسقي، وذو قدرة إدماجية فائقة⁵²³.

المحور الثالث: حجم تأثير أفكار الجيل الأول لمدرسة فرنكفورت على النظريات المعاصرة بشأن مفهوم الدولة.

لقد بذل الجيل الأول لمدرسة فرنكفورت جهداً فكرياً عظيماً لنقد المشروع التنويري الحداثي، سعياً منهم لإنقاذ المجتمع الغربي من تداعيات العقل الأداة التقني المتمثلة في التسلطية والاعتراب، والتشويش، والهيمنة، والتسليع. وإبداع منظومة فكرية جديدة تعمل على فحص وتشخيص امراض الحداثة الاجتماعية والسياسية وإبداع مفاهيم جديدة لتحليل عمل السلطة، وآليات الهيمنة داخل المجتمعات الغربية الحديثة، وخلق سبل ناجعة للتحرر والانعتاق من أسر التقنية والشمولية والهيمنة والإيديولوجيا.

وكان لأفكار الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت تأثير بالغ على تشكل نظريات نقدية معاصرة حول مفاهيم الدولة والسلطة والمجتمع، وامتد هذا التأثير ليطال العديد من الحقول العلمية؛ لا سيما الفلسفة السياسية، وعلم الاجتماع، ونظرية القانونية، ونظرية الدولة بكل عام. إذ نظر أبرز المنتمين للجيل الأول إلى الدولة الحديثة في السياقات الرأسمالية بدفاعاً عن السوق، وعملها على تكريس علاقات القوة، وهيمنة النخب الاقتصادية والسياسية من خلال إنتاج إيديولوجيا الهيمنة على الفرد والمجتمع. وقد كان لهذا التصور أثراً عميقاً على النظرية النقدية المعاصرة ومدرسة ما بعد الماركسية التي تناولت مفهوم الدولة من منظور نقدي.

⁵²³ Katia Genel, op.cit

وقدّمت أيضا مدرسة فرانكفورت تحليلا أكثر عمقا تعقيداً للسلطة يتجاوز المقاربة المؤسساتية الرسمية للسلطة، وكذلك الاقتران بين السلطة والقمع كما في النظرية الماركسية التقليدية، إلى تبني مقاربة أكثر شمولية للسلطة تشمل أشكال الهيمنة الثقافية والإيديولوجية التي تمارسها الدولة بواسطة أجهزة أيديولوجية وثقافية، وكان لهذا التصور أثر واضحاً في النظريات المناولة لمفاهيم السلطة والحكمة والحكمانية.

وعملت المدرسة النقدية (الجيل الأول) على الانعتاق من الوضعين الاجتماعي والسياسي القائمين، منطلقة من كون الانحطاط الذي شاب الحضارة الغربية غير مرتبط بالأفراد، بل بسبب التسلطية المنتشرة في بنيات الدولة والمجتمع⁵²⁴، ولذلك حاولت النظرية القيام بمراجعة نقدية شاملة للمشروع الحداثي الأنواري، بالسعي إلى انقاذه من خلال بسط عقلانية نقدية في محل العقلانية الأدوات التقنية المنحدرة من الفلسفة الأنوارية التي كانت سبب المنزلق الأخلاقي للدولة الغربية بصفة عامة.

يستدعي تحقق المشروع النقدي للمدرسة النقدية تفكيك سرديات الحداثة، وتحقيق عملية التحرر الإنساني، وتجاوز الاغتراب والتشويء المكرسين من قبل الرسمالية، كما يستدعي ذلك إبداء جهد نقدي كبير تجاه المؤسسات القائمة من قبيل الدولة، السلطة، الثقافة، الفن، العقل.

كما تتجلى الأهمية الفكرية للنظرية النقدية في سعيها لكشف الممارسات القمعية اللاأخلاقية التي تمارسها الدولة الرأسمالية في ظل منطق التصنيع، والذي انقلب فيه آمال التقدم والتحرر من الحاجة، إلى وحشية حدا جعل نشته يصف الدولة الغربية الحديثة بالوحش البارد، ما أدى إلى تتراجع العقل على المستوى الإيتيقي، وتحلله من مسؤوليات انحرافاته الأخلاقية والإنسانية. تتقاطع التوجهات النقدية لمدرسة فرانكفورت مع منطلقات فلسفة ما بعد الحداثة، بحيث ستتغذى منها مجموعة من النظريات التي تعرضت بكثير من التفكيك والتحليل والنقد لمختلف الإشكالات المطروحة من قبل النظرية النقدية، لا سيما أعمال فوكو وهابرماس وهونيث وتورين وموران.

⁵²⁴يوسف بن المكي، "مدرسة فرانكفورت ومسار العقلانية"، دراسات، 8 دجنبر 2023، على الرابط: <https://caus.org.lb> (4 غشت 2025)

والذين عملوا جميعا على بلورة انساق فلسفية واجتماعية كاشفة لآليات السلطة، ولمحدودية سرديات الحداثة الكلاسيكية في توصيف وتحليل وتفسير مجموعة من المتغيرات الضابطة للعلاقة بين الدولة والسلطة والمجتمع والفرد.

سيكون لأفكار النظرية النقدية (الجيل الأول) وقع كبير، وأثر بالغ في معظم النظريات الفلسفية والاجتماعية والأنثروبولوجية المعاصرة، والتي جعلت من النقد أسلوبا في التعاطي مع المشكلات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وتلك التي ركزت انشغالاتها العلمية حول مفاهيم الدولة، والسلطة، والمجتمع.

ولذلك، ستحاول مجموعة من المشاريع الفكرية استلهام الرؤية النقدية التحليلية التي كرسها الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت لمقاربة مختلف الإشكاليات المرتبطة بسياق الرأسمالية، والأنظمة السياسية الشمولية، وهيمنة العقلانية التقنية الأدوات على بنيات السلطة والمجتمع، وأيضا في محاولة كشف تقنيات السلطة المجهرية وآليات ضبط العلاقات الاجتماعية، وفي هذا الإطار ظهرت أعمال يورغن هابرماس بصفه وريثا لأفكار الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت والذي تأثر بشكل كبير بعمق تحليلات هوركايمر وأدورنو وماركيوز في نقد الرأسمالية والعقل الأدوات.

وسيحاول هابرماس طرح مشروع نظرية الفعل التواصلي كمنطلق لبداية التفكير النقدي حول قضايا ذات صلة بالمجتمع والدولة مدعيا إمكانية التحرر من العقلانية الأدوات والمنطق الصراعى عبر التواصل العقلاني وليس فقط عبر تفكيك السلطة. التي سيعمل ميشيل فوكو على جعلها في قلب اهتماماته الفلسفية والسوسيولوجية، عبر تحليل أنظمة وآليات السيطرة من منظور مختلف.

خاتمة

لقد حاولت مدرسة فرانكفورت الانخراط في مشروع نقدي تحليلي ضخم في سياق شهد توغل العقلانية الأدوات، وعلاقات الهيمنة الاجتماعية الناتجة عن التصنيع وتسليح العلاقات الاجتماعية وتشبيء الذوات البشرية وتكريس منطق " البعد الواحد"، وارتبط هذا السياق كذلك

بمنجزات الفلسفة الديكارتية القائمة على منطق التحكم في الطبيعة، والقدرة على إخضاع كل شيء للعقل الرياضي بعيدا عن استحضار الابعاد المركبة للذات البشرية. وحرصت المدرسة أيضا على جعل مفاهيم الدولة والسلطة والمجتمع ضمن قائمة اهتماماتها الفلسفية والاجتماعية، سيرا على نهج مشروع ما بعد الحداثة الذي أعاد النظر في مختلف السرديات التقليدية للحداثة كالتتوير، والعقلانية، معززا تفكيرنا نقديا بمنطق المراجعات العامة لأسس ومناهج ومفاهيم الحداثة استثمارا للمقاربة الماركسية بعد تطويرها ومراجعتها وتكييفها مع التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة داخل المجتمع الرأسمالي. وكان لأفكار مدرسة فرنكفورت لا سيما الجيل الأول تأثرا بالغا على إسهامات مجموعة من المفكرين، من قبيل ميشيل فوكو، الذي خصص ابحاثه لتحليل بنيات السلطة وآليات هيمنتها الاجتماعية، وكذلك لتفكيك العلاقة بين السلطة والمعرفة والفرد. كما تأثر يورغن هابرماس ومن بعد، بالتوجه النقدي للمدرسة محاولة صياغة نظرية للفعل التواصلي لتجاوز أزمة العقلانية الأداتية، وخلق آليات سياسية مسعفة على الانعتاق من أزمة الديمقراطية التمثيلية. وسنخصص مقالين لاحقين لإسهام فوكو في نظرية الدولة، وأبضا لنظرية الفعل التواصلي في علاقتها بمفهوم الدولة.

لائحة المراجع

باللغة العربية

المصادر

ستيفن غريك برونر، " النظرية النقدية، مقدمة قصيرة جدا"، ترجمة سارة عادل، مؤسسة هنداي، الطبعة الأولى، 2016

المقالات

إيهاب حسن، سؤال ما بعد الحداثة، ترجمة: بدر الدين مصطفى أحمد، مؤمنون بلا حدود (2016)

عصام عبد الله، " الجذور النييتشوية لـ " ما بعد " الحداثة "، الفلسفة والعصر، العدد الأول، أكتوبر، (1999)، كمال طيرشي، ترجمة عصام سليمان، وغانم هنا، "مراجعة كتاب: مدرسة فرنكفورت: تاريخها وتطورها النظري وأهميتها السياسية لرولف فيغر سهاوس"، مجلة تبين، العدد 45 - المجلد 12 / 12 Issue 182 Volume - 45 صيف (2023)

البشير معمريّة، " التسلط والتعصب وطاعة السلطة والقتل الجماعي من منظور علم النفس الاجتماعي السياسي"، مجلة علم النفس التطبيقي قسم علم النفس، كلية الآداب، المنوفية. يوسف بن المكي، "مدرسة فرنكفورت ومسار العقلانية"، دراسات، 8 دجنبر 2023، على الرابط: [/https://caus.org.lb](https://caus.org.lb)

باللغة الفرنسية

Gary Madison, **Visages de la postmodernité, Études littéraires**, Volume 27, numéro 1, été 1994. P. 117

Kopp Robert. **Baudelaire : mode et modernité**. In : Cahiers de l'Association internationale des études françaises, 1986, n°38. pp. 173-186, p. 176

Liotard, Rorty et Agamben, "**théories sur la postmodernité**" : (Exposé de Jacques Mascotto) Séminaire du 11 octobre 1991, Groupe interuniversitaire d'étude de la postmodernité, Cahiers de recherche, p. 4

Marcuse Herbert, Brohm Jean-Marie. "**L'idée de progrès à la lumière de la psychanalyse**". In : L'Homme et la société, N. 11, 1969. Freudo-marxisme et sociologie de l'aliénation. pp. 37-47, 38

Nicole van Enis, "**le postmodernisme**", une publication barricade – le postmodernisme, céqwaça ?

Caroline Guibet Lafaye, "**Esthétiques de la postmodernité**", 2000,
Preprint submitted on 9 Sep 2012

Gravel, P. "**Hegel et la construction de l'État : contribution à sa destruction**". Philosophiques, Volume 9, numéro 1, avril 1982

Grégoire Franz. "**L'État hégélien est-il totalitaire ?**" In : Revue Philosophique de Louvain. Troisième série, tome 60, n°66, 1962. pp. 244-253

Sabina tortorella, "**au-delà de la multitude : l'état hégélien à l'épreuve du présent**", Etica & Politica / Ethics & Politics, XXIII, 2021, 2, pp. 77-102

Yao Germain YAO, "**l'état moderne : une institution monstrueuse**", collection recherches & regards d 'Afrique vol 1n° 1 fév. 2022

Radjavi Kazem. "**L'État et la dictature du prolétariat**". In : Raison présente, n°39, Juillet – Août – Septembre 1976. Langage, communication, chimpanzés. pp. 33-59

Mikhail bakunin, "**Sur l'état**", Passages de *l'Étatisme et anarchie*, Zurich, 1873, <https://www.panarchy.org/bakunin/etat.html>.

Stephano petrucciani, "**La théorie critique de l'École de Francfort et le mouvement des années 1968**" : un rapport complexe, Actuel Marx / no 48 / 2010 : Communisme

Morrow, R. A. (1983). **La Théorie critique de l'École de Francfort : implications pour une sociologie de la littérature**. Études françaises, 19(3), 35-49

Igor Krtolica, « **Herbert Marcuse, penseur de la révolte des étudiants allemands** », Cahiers du GRM [En ligne], 3 | 2012, mis en ligne le 29 mai 2012, consulté le 30 avril 2019

Raffaele Carbone, **La Théorie critique aujourd'hui : usages et déclinaisons**, horizonsfile:///C:/Users/lenovo/Downloads/la-theorie-critique-aujourd'hui-usages-et-declinaisons.pdf

Ferry Jean-Marc. **Théorie critique et critique du totalitarisme**. In: Revue française de science politique, 34^e année, n°1, 1984. pp. 79-102¹ Katia Genel, La dialectique de la raison, contribution à une théorie du totalitarisme ? État autoritaire, État totalitaire et non-État, édition de la maison des sciences dl'homme, <https://books.openedition.org/editionsmsmsh/28278>

Hannah Arendt, "**le système totalitaire**", éditions du seuil, 1972